المحاضرة الأولى: الفرد والجماعة والمجتمع (مفاهيم أساسية)

عناصر المحاضرة:

1- مفهوم الفرد
   1-1- الفردانية
2- مفهوم الشخصية
3- مفهوم الجماعة الاجتماعية
   3-1- الجماعة البيولوجية
   3-2- الجماعات ذات الطابع الجغرافي
   3-3- الجماعات التي هي تجمعات اجتماعية
4- مفهوم المجتمع
5- العلاقة بين الفرد والمجتمع

تمهيد:

تعنى العلوم الاجتماعية –على العموم– بدراسة المجتمع الإنساني، وذلك لفهم طرق الحياة الاجتماعية، وأساليب توافقها وقوى الطبيعة والقوى الغيبية أو الماورائية، وكذا القوانين أو السنن التي تتحكم في سيرها، وذلك بوساطة الأنماط الثقافية المنتجة من قبل الجماعات الاجتماعية، وعليه فإن البناء الثقافي لأي مجتمع، ليس فقط من إنتاج الفرد، إلا أن الأخير يستدمجه ويشارك في نقله للأجيال اللاحقة عليه عبر التاريخ، ويتعايش وفق محدداته والجماعة التي ينتمي إليها (عائلة، عشيرة، قبيلة..إلخ). ولأن الفرد جزء من الجماعة الاجتماعية والمجتمع، وهو يمثل أصغر وحدة في البناء الاجتماعي، فإنه يكون من الصواب تناول مفهومه ودلالته الاصطلاحية ومفاهيم أخرى ذات الصلة، والتي تتمثل في مفهوم الشخصية، الجماعة الاجتماعية والمجتمع، وهو ما سيتم تناوله بكثير من الدقة والتفصيل، ضمن أولى محاضرات مقياس "فرد وثقافة".

1- مفهوم الفرد:

تستخدم كلمة "الفرد" في اللغة العربية الكلاسيكية بمعنى الوتر، وهي تجمع على أفرادٍ وفرادى، والفرد نصف الزوج ولا نظير له. وتأتي كلمة تفرّد بمعنى انعزل وتميز عن غيره، والفرد هو المتفرد والمتميز عن القطيع أو الجماعة، فنقول أفرد زيد بالأمر تفرد به، وتفرد بالأمر أي كان فيه فرداً لا نظير له. وشكل الفرد بوصفه اصطلاحا إنسان أحادي منفرد، ويحوي هذا المفهوم معنى آخر، هو الكلية التي لا يمكن تجزئتها إلى مكون أصغر، أو بالأحرى الشيء الذي لا ينقسم ماديا.

إن الفرد في اللغة يخص الفرادة والتميز عن الأفراد الآخرين، ويحمل الخصوصية النفسية، العقلية، الاجتماعية، الاقتصادية والبدنية، التي تعبر عن محتوى سلوكي ينتج اجتماعيا، ويقيم بمعايير الجماعة

الاجتماعية، فيبرع هذا في ميدان الأدب أو السياسة وذاك في الفن أو العلوم وغير ذلك من المجالات التي تميز فرد عن فرد آخر، والتي تبرزها سيكولوجية الفروق الفردية، التي تشمل جميع جوانب النشاط، الذي يصدر عن الشخصية. ثم إن مفهوم الفرد ينطبق على الإنسان فقط، أما غير الأحياء أو ما يصنعه الإنسان، فيعبر عنه بالعينة أو شيء.

أما الفرد وفقا للمنظور الأنثرو-سوسيولوجي؛ فيعرف بشكل عام في هذا المجال استنادا إلى علاقته بالمجتمع والجماعة، أو بوصفه الوحدة المرجعية الأساسية، سواء إليه بالذات أو بالنسبة إلى المجتمع. في حين يعتبر الفرد في علم النفس: الشخص المتميز عن الآخرين بهويته ووحدته، بمعنى آخر هو شخص ذو صفات خاصة ومختلفة عن الصفات المشتركة، بينه وبين أبناء جنسه.

إن الفرد في علم الاجتماع هو وحدة من الوحدات، التي يتألف منها المجتمع، مثل: المواطن في الدولة، اللاعب في الفريق..، فالأفراد إذن يمثلون آحادا يتألف منها الجسم الاجتماعي (جماعة/ أو مجتمع). وإذا رجعنا للغة الفرنسية نجد أن **الفرد Individu** كلمة جاءت من اللاتينية **Individum** وتعني **اللا منقسم Indivisible** بمعنى الوحدة غير المنقسمة وغير المجزئة، ومنه جاء مصطلح **Individualism /Individualisme** الذي يعني **الفردانية.**

1-1 الفردانية:

تمثل الفردانية أو الفردية الحالة التي يكون عليها الفرد كيانا مستقلا ومتفردا عن الجماعات التي ينتمي إليها، وقادرا على اتخاذ قراراته استنادا إلى إمكانياته الخاصة، وقدراته المستقلة عن أفراد الجماعة الآخرين الذي ينتمي إليهم الفرد .كما أنها نزعة أو سلوك يؤكد على الخصائص الذاتية للفرد، وعلى سماته ومميزاته الخاصة، وذلك بما يتعارض مع ما هو جمعي وعام ومشترك، وهذا يعني أن الفردانية تؤكد ما هو خاص ومتفرد؛ بمعنى أن الفرد وفقا لمفهوم الفردانية كائن إنساني يمتلك وحدته الداخلية، ويؤدي وظيفته كنسق ونظام متكامل، ويمتلك استقلاليته خاصة في دائرة الوسط الذي ينتمي إليه. كما ترمز الفردانية إلى واقع اجتماعي وثقافي، يستطيع فيه الأفراد اختيار طريقة حياتهم وسلوكهم وممارسة عقائدهم.

لذلك، فإن الفردانية تنمو غالبا في المجتمعات الحديثة، التي زعزعت معتقداتها التقليدية، واستطاعت أن تتخلص من الطبقات الاجتماعية المغلقة. ولكن نشير أن الفردانية لا تعني العزلة أو التضاد مع ما هو اجتماعي، بل تعني أن الفرد يكتسب خصائص يتميز فيها عن الآخرين في سياق التعاون والتكامل الاجتماعي. فهناك إذن فرق بين مفهوم الفرد ومفهوم الفردانية أو الفردية، فالفرد هو جزء أحادي، أما الفردية فهي سمات خاصة بالفرد، لا تتكرر لدى غيره، وبذا فالفرد هو حامل للفردية.

2- مفهوم الشخصية:

بداية، تجدر الإشارة أن **الشخصية Personnalité/ Personality** هو مصطلح **سيكولوجي وليس سوسيولوجي**، ويستخدم في علم الاجتماع للإشارة إلى السمات والخصائص، التي تميز فردا عن آخر، والتي

يكون للمجتمع أو البيئة الاجتماعية وبخاصة العائلة، دور أساسي في تكوينها، ولذلك يستخدم علماء الاجتماع في كتاباتهم وتحليلاتهم مصطلح **فرد Individu** وليس **شخص Personne**. فيما يستخدم مصطلح **عضو Organe** بدل **فرد** حينما يتعلق الأمر بالانتماء إلى جماعة أو مؤسسة اجتماعية/ أو منظمة، كأن نقول عضو من حزب سياسي أو عضو من فريق رياضي أو عضو من العائلة.. إلخ.

تعرف **الشخصية** بأنها نظام متكامل من مجموعة الخصائص الجسمية والوجدانية والنزوعية والإدراكية، التي تعين هوية الفرد، وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزا بينا.

فهي تدل على طباع الشخص ومزاجه الخلقي، كما تدل على وحدة الذات وثباتها. وتعرف كذلك بأنها صيغة منظمة نسبيا لنماذج السلوك والاتجاهات والمعتقدات والقيم النمطية المميزة لفرد معين، والتي يعترف بها هو والآخرون، وتعتبر الشخصية محصلة الخبرات الفردية في بيئة ثقافية معينة، ومن خلال تفاعل اجتماعي متميز. أو هي مجموعة خصائص الفرد الجسمية منها والعاطفية والنزوعية والعقلية، التي تمثل حياة صاحبها، وتعكس نمط سلوكه المتكيف مع البيئة. على أن الشخصيات الفردية، تعكس بناء مجتمع الشخص، وثقافته والعمليات الكامنة ضمن هذا البناء.

ونشير أن للشخصية عدة مكونات متداخلة، انشغل الباحثون في علوم الاجتماع والأنثروبولوجيا والنفس بدراستها وتحديدها، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

- **المكونات الجسمية:** تتعلق بالبنية الفيزيقية للفرد، مثل: لون البشرة، القامة، الوزن، الصحة العامة، الأداء الحركي، الأمراض الجسمية، الإعاقات ووظائف الحواس وأجهزة الجسم المختلفة _الجهاز العصبي، الدوري، الغدد..إلخ).
- **المكونات العقلية:** تشمل وظائف العقل العليا كالذكاء العام، والقدرات الخاصة كالقدرة اللغوية والقدرة العددية.
- **المكونات الاجتماعية:** تتضمن قدرة الفرد على تكوين علاقات مع أفراد آخرين، أو تكوين علاقات مع جماعات أخرى، ومن ثم يكون الفرد ذو شخصية اجتماعية، تتسم بالانبساطية وحب الآخرين، وتتمتع بثقة بالنفس، فيكون الشخص بذلك محبوبا من طرف الجميع.
- **المكونات الانفعالية:** تتعلق بالنشاط الانفعالي والنزوعي، كالميل نحو الانبساط أو الانطواء، والميل نحو السيطرة أو الخنوع.
- **المكونات البيئية:** ونقصد بها العوامل المرتبطة بالبيئة التي يعيش فيها الفرد، وذلك بتفاعل المكونات الفيزيولوجية والبيئية، ولا شك أن التغير الذي يحدث لأحد هذه المكونات نتيجة العوامل الفيزيولوجية والاجتماعية، يؤثر بدوره في تكوين الشخصية، مما يؤكد عملية التفاعل بين تلك المكونات وتأثيرها في بعضها البعض.

هذا، ونذكر بأن الشخصية تنمو وتتطور من جوانبها المختلفة داخل الإطار/ أو النمط الثقافي الذي تنشأ فيه، وتتفاعل داخله، حتى تتكامل وتكتسب الأنماط الفكرية والسلوكية، بما يمكنها من التكيف والتأقلم والمحيط الاجتماعي العام، وعليه يمكن القول أن الثقافة مسؤولة عن الجزء الأكبر من محتوى أو تكوين أي شخصية.

3- مفهوم الجماعة الاجتماعية:

تعني مجموعة **Groupe/ Group** من الأفراد، يقوم بينهم نمط من التفاعل السيكولوجي والاجتماعي، حيث يعتمد كل منهم على الجماعة في تحقيق أهداف محددة أو مقابلة احتياجات معينة، ويكون للجماعة وحدتها الذاتية، التي يسلم بها أعضاؤها وكذا الغير. كما يشترك أفراد الجماعة الواحدة في الثقافة نفسها، والمرجعيات الدينية والإيديولوجية أيضا، وبالتالي تعد الجماعة وحدة اجتماعية، يزداد تماسكها وقوتها بتضامن أفرادها، وانتهاجهم نمطا ثقافيا موحدا، وأسلوبا معينا مشتركا في الحياة الاجتماعية، ومن ثم تأخذ الجماعات الاجتماعية أشكالا متعددة، منها: العائلة، القبيلة، الجماعة المهنية..إلخ. كما يمكن أن تصنف الجماعات إلى أنواع أكثر تعقيدا وتشعبا، تنحصر غالبا فيما يلي:

3-1- الجماعات البيولوجية:

وتتعدد أنواعها بحسب الجنس كالجماعات النسوية مثلا، أو السن مثل نوادي المسنين أو الشباب، أو القرابة والتي تكون على أساس الصلة الدموية في السلالة الواحدة.

3-2- الجماعات ذات الطابع الجغرافي:

يقوم هذا النوع من الجماعات على أساس وحدة مكان الإقامة ذي الحدود المعينة، والذي ينتج عددا من الصلات والعلاقات المتبادلة، مثل: الأرياف والمدن.

3-3- الجماعات التي هي تجمعات اجتماعية:

وأساس هذه الجماعات الاشتراك في العمل أو المهنة أو الوظيفة تماما كالنقابات والأحزاب وغيرها.

4- مفهوم المجتمع:

المجتمع **Society/ Société** هو جماعة من الأفراد، يعيشون معا في منطقة جغرافية معينة، وتجمع بينهم ثقافة مشتركة، لكنها تختلف عن غيرها، بحيث يكون لكل مجتمع ثقافة خاصة به أو نمطا ثقافيا خاصا، كما يجمع بينهم الشعور بالوحدة الاجتماعية، وينظرون إلى أنفسهم ككيان متميز. كأن نشير إلى مجتمع معين: مجتمع جزائري، مجتمع إيطالي، مجتمع ماليزي.. إلخ.

يتميز المجتمع كتجميع للجماعات، ببنيان من الأدوار المتصلة ببعضها، والتي تتبع في سلوكها المعايير والضوابط الاجتماعية. ويتضمن المجتمع جميع النظم الاجتماعية الأساسية والضرورية، لمواجهة الحاجات البشرية الأساسية، وهو مستقل لا بمعنى اكتفائه الذاتي التام اقتصاديا، ولكن بمعنى شموله لجميع الأشكال التنظيمية الضرورية لبقائه.

يجمع إذن المجتمع مختلف أشكال الجماعات الاجتماعية بكل أحجامها وأنواعها وتوجهاتها، مثل: الطوائف الدينية، الجماعات القرابية، الأحزاب السياسية، النوادي الرياضية والثقافية.. إلخ. لذلك، يمثل المجتمع الحيز الاجتماعي، الذي تتعايش فيه مختلف الجماعات والأفراد، وهو لذلك أكبر من الجماعة ويمثل "**كلا**" **Un Tout** بالمقارنة مع أي تجمع اجتماعي آخر.

5- العلاقة بين الفرد والمجتمع:

يمكن ببساطة، تناول العلاقة بين الفرد والمجتمع على شاكلة العلاقة بين الجزء والكل، طالما أن الفرد يمثل أصغر وحدات البناء الاجتماعي، التي تدخل في تكوين كل مؤسسات المجتمع، بدء من الأسرة، فتتشكل الجماعات الاجتماعية عن طريق العلاقات الاجتماعية، التي تنشأ بين الأفراد، تحقيقا للإشباعات وسد الحاجات المتعددة، التي يعجز الفرد المفرد عن تحقيقها، فيدخل في علاقات اجتماعية (عاطفية، سياسية، دينية..) والآخرين. وعليه يمكن القول أن الفرد يمثل النواة الأولى للبناء الاجتماعي، الذي يشكل بدوره كيان المجتمع.

فالأفراد الذين ينحرفون عن الضوابط والقواعد التي يصوغها المجتمع، سواء ما تعلق بالعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية أو ما تعلق منها بالقوانين والأحكام والمرجعيات القانونية والسياسية، فإنه يؤثر على أمن واستقرار وتماسك الجماعة التي ينتمي إليها، ويهدد بذلك وحدتها الاجتماعية. ومن ثم يكون من المهم إيلاء الفرد الأهمية المستحقة في تحليل المشكلات الاجتماعية، خاصة تلك المرتبطة بعملية التفاعل الاجتماعي.

كما لا يمكن إغفال أهمية نمط القيادة، التي يتصف بها الفرد القائد داخل المؤسسة (اقتصادية، اجتماعية، إدارية وخدماتية..) والتي يمكن أن تؤثر كذلك على الأداء الوظيفي للموظفين والعمال، وبالتالي التأثير على أهداف المؤسسة، تماما كنمط القادة الدكتاتوريين أو المتسلطين، وهو ما يمكن إسقاطه على حكام ورؤساء الدول أيضا. وعلى العكس من ذلك، يمكن للشخصيات القيادية الكاريزمية، أن تؤثر (حتى بعد وفاتهم بالآلاف السنين) في العديد من الجماعات والمجتمعات برمتها، وأن تغير ما ساد فيها من معتقدات وأفكار ومواقف واتجاهات، وأن تؤسس أعظم الحضارات الإنسانية، تماما مثل: الفيلسوف الصيني **كونفشيوس**، وخير المرسلين سيدنا **محمد صلى الله عليه وسلم**.

خلاصة:

يمثل الفرد والجماعة والمجتمع مفاهيما مركزية في علم الاجتماع، وهي أسس التحليل السوسيولوجي، وإن كانت ثمة مفاهيم أخرى ذات الصلة مثل الشخصية.. وبعض ما ورد ضمن هذه المحاضرة، إلا أن استخداماتها في علم الاجتماع محدودة، فيما يستخدم مصطلح الفرد بشكل رئيسي طالما أنه يمثل أصغر مكونات البناء الاجتماعي، تتوسطه الجماعة ويحتويها جميعا المجتمع.